الفصل الثاني عشر
الجِمال والنساء والأطفال والجَراد

يا لهذه الجِمال! إنها تثبت أقدامها وتسحق بها وتتزواج وتتصارع وتبكي وتخاف (نعم!) وتضحك! إنها ضعيفة ولكنها دائماً وأبداً هائجة. إنها تجري كالآلات لساعات طويلة ثم تتوقف فجأة وترفض التزحزح. وبمجرد أن يكون راكبها فوق الشداد تصبح حيوانات منتصبة وفخورة وواثقة من نفسها ونبيلة، تتحرك بخطى مرنة، ولكنها عندما يجلس الراعي الكسول فوق سنامها تصبح بليدة وكسولة ونهمة.

الجمل ليس مجرد حيوان للركوب. فالبدوي يستفيد منه بطرق كثيرة أخرى. إنه يطبخ لحمه ويأكله على الرغم من أن لحمه قاس ـ حتى بعد الطبخ ـ لدرجة تجعل أسنان المرء مثلمة أو مخلخلة نتيجة للجهد المبذول لمضغه. والبدوي يشرب حليب الجمل. وفي وقت الشدة يشرب حتى السائل الحامض الكثيف الذي تفرزه معدته. في صباح الأيام الباردة يدفىء الناس أيديهم في بول الجمل، وأحياناً يغسلون به شعرهم. إنه يقتل كل الطفيليات! ووبر الجمل يجمع ويتحول إلى عباءات للرعاة، وثياب للنساء والأطفال، كما أن هذه الحيوانات

المسكينة تنوء تحت أحمال لا تصدق. أما روثها فيستعمل وقوداً لنيرانهم، وتصنع من جلودها قرب الماء والنطاقات والصنادل.

في صباح أحد الأيام لاحظت امرأة تتحول بين الجمال الرابضة. وكلما رأت ناقة تنهض أسرعت إليها وجمعت بولها (الذي كانت بانتظاره) في وعاء تحمله لهذه الغاية. ويجب أن نتذكر أن بول الجمال تفوح منه رائحة الأعشاب والنباتات العطرية. وعندما عادت إلى خيمتها التي كان أحد جوانبها مفتوحاً رأيتها تجمع خصل شعر ابنتها الصغيرة في يدها وتغمسه في سائل الشعر الثمين، ثم تمشط وتضفر الشعر الأسود الرطب على شكل الجدائل المعتادة. ثم رأيتها تعود إلى الجمال ثانية، ولكنها تجلس فجأة. وبعد لحظة نهضت ثانية ورمت وعاءها وعادت مسرعة إلى خيمتها، ولكنها سقطت قبل أن تقطع مسافة طويلة. نهضت وركضت نحوها.

وعندما حاولت مساعدتها على النهوض لم تنبس ببنت شفة، لكنها سحبت ذراعيها مني وجثمت على الأرض. لاحظت أنها في حالة ولادة. ولما لم يكن هناك أي أشخاص كبار في مدى السمع ناديت بنات المرأة وطلبت منهن أن يحضرن فرشاً وجلوداً صنعت منها وسادة للمرأة بين الجمال، وأعدت البنات إلى الخيمة، واتخذت من نفسي ستاراً للمرأة وسترتها بأحد الجلود وهكذا ولدت صبيها الأول.

في الحال وصل زوجها واثنان من عبيد فارس. التقط الأب المولود الجديد وهرع ثلاثة رجال إلى جمل فضربوه على وركه لينهض وأخذوا يدلكون جنبه بأيديهم اليمنى حتى تبَّول، فحمموا المولود الذي كان يصرخ فعمدوه بهذا الماء المعطر من حيوان الصحراء إلى زمالة البرية المقدسة.

كنت أفكر بالصورة غير المتوقعة التي تمت بها هذه الحادثة عندما روعتني ضربات ثقيلة على سطح الخيمة والرمل في الخارج. في كل مكان: على الخيام وعلى ظهور الجمال. كانت السماء تمطر جراداً أحمر سميناً.

عندئذ كانت والدة المولود الجديد تقرفص في خيمتها الملأى بالدخان مشغولة ـ بمساعدة صديقاتها ـ في لف جسمه بمسحوق بعر الجمال والأقمشة القديمة، وهو إجراء لابد منه عند البدو لحماية المولودين الجدد. ولكن على الرغم من الأهمية القصوى لهذه العملية فإن كل النساء باستثناء الوالدة اندفعن بعجلة شديدة لمساعدة الرجال والأطفال في جمع الجراد.

واستمر الجراد يأتي بأسراب، بل بسحابة فوق سحابة. وبينما اندفعت الآلاف بأصوات عالية فإن الكثير منها توقف عن الطيران واستقر حولنا. فحيثما تطلعت وجدت الأرض مغطاة بالجراد كما لو كانت مغطاة بسجادة حمراء زاحفة. وفقدت الأرض العشب والحشائش والشجيرات بفعل كتل الحشرات التي تلتهم كل شيء.

وسرعان ما كان الجراد فوق كل موقد. وكان الرجال والنساء والأطفال يقرفصون متحلقين حول الموقد. التقطوا الحشرات بجناحيها الشفافين وقطعوا الساقين وغمسوا الحشرات المشوية بالملح وأكلوها.

لم أستسغ طعم الجراد المسلوق إذ إن لها طعم اليخنة (الفئة) أو مثيلها من الخضراوات. لكنني وجدت الجراد المشوي مقبولاً أكثر فهو قاس من الخارج وداخله يشبه السبانخ الطرية. في كلتا الحالتين ليس له طعم اللحم. إنها حشرات نظيفة مقبولة كطعام، ولكن المرء سرعان ما يملّها عندما يتوجب عليه أكلها دون سواها يوماً بعد يوم.

استمر الستار الدخاني في كل المخيم طوال النهار مما دفع النساء والأطفال للجري لجمع الجراد. وفي صباح اليوم التالي وجدت الأكداس من تلك الحشرات تجفف في الشمس، وعندما غادرنا هذا المخيم بعد بضعة أيام لم يكن هناك أي كيس أو خرج فارغ، وحملت جمالنا الأحمال الهائلة من هذه الحشرات المجففة. فالرجال والنساء والكلاب والجمال أكلت من الجراد ولكن لبضعة أيام فقط؛ لأن الجراد قلب معدة الجميع. وما تبقى حفظ بعناية لأوقات

عصيبة أخرى؛ لأن الجراد عندما يتدفق بأعداد هائلة يستطيع المرء أن يتنبأ بالقحط والمجاعة.

وعندما سرنا في إثر هؤلاء الغزاة وجدنا الأرض جرداء عارية، إذ إن كل قطعة عشب اختفت في تلك الأفواه النهمة. ولكن أدركت أن «وباء الجراد» لم يكن ماحقاً تماماً في الصحراء كما كان بالنسبة للفلاحين في شرقي الأردن وفلسطين ومصر. ففي الصحراء يعتبر نعمة بالنسبة للناس الآخرين. سمنت من أكل الجراد، كما أن أسراباً من اللقق تتبعت السحب الحمراء. والجراد مفيد جداً حتى بالنسبة لسكان الصحراء الآدميين. حدثني فارس أن عشرات الآلاف من البدو اضطروا أن يعيشوا على الجراد فقط لمدة أسابيع، حتى جمالهم وخيولهم أحياناً لاتجد طعاماً آخر. وخلال مسيرة الأيام الأربعة إلى الشمال ـ حوالي (٤٥ ـ ٥٠) ميلاً عن مخيمنا الأخير في جبل الطويل ـ وجدنا أن كل المراعي قد اختفت إذ ابتلعها الجراد حتى آخر نبتة. وفي سهل **البياز** فقط وجدنا انهداماً كثير الأعشاب لم يمسه الجراد فخيمنا هناك في حماية أحد الوديان.

أنزلت النساء والعبيد أحمال الجمال، وفي الحال بدأت بنصب الخيام. فرشت أقمشة الخيام على الأرض مثل الجلود السوداء الكثيفة الشعر، ورسمت الخطوط شرقاً وغرباً، وغرست أوتاد الخيام في الأرض بالمطارق الخشبية، ووزعت أعمدة الخيام بالتساوي تحت شريط السقف. وبالرفع والدفع تنتصب الخيمة عموداً بعد آخر حتى يستقر «بيت» الشعر فوق دعائمه. ويرتفع صف بعد آخر من الخيام التي ألقت بظلالها عندما لمعت أشعة الشمس الأخيرة على سقوفها القممية.

اشتريت جملاً ضعيفاً من رفاقي المسافرين وذبحته ووزعت لحمه على الجميع. وسرعان ما بدأت طناجر أبناء **إسماعيل** بالغليان. وجذبت روائح الطعام قطيعاً من الكلاب الجائعة. وأخذ أحد الرجال على عاتقه أن يلعب دور المضيف لي ولفارس ولعدد من الرجال الآخرين. ومن قلب الظلمة تسلل قطيع جماله بهدوء، وظهر فجأة في ضوء النار كأنه ظهر من تحت الأرض وجثم أمام خيمته.

وشعرنا بالارتياح والألفة بجانب النار ضمن الدائرة الواسعة من الرجال والحيوانات.

ونقل طاهينا كتلة طينية عطرة من القهوة المطحونة من إحدى القرب الجلدية إلى مصب القهوة الذي وضعه على النار. وعلى الخمير الأسود المر وبعد أن أزيلت الرغوة جيداً صب الطاهي جزءاً من القهوة في أصغر مصب موجود. ومن الأخير بدأ يصب بضع قطرات في كل مرة في فنجان خشبي وحيد لرجل بعد آخر في المجموعة. وبدأت كومة بعر الجمال الذي جمعته النساء بالتوهج، وبدا كل فرد على رؤوس أصابعه مترقياً عندما نهض وذهب إلى جناح النساء من الخيمة. وعلا منه الصخب فالعشاء جاهز تقريباً، وبالتأكيد ظهرت امرأة وأحد العبيد يحملان «منسفاً» كبيراً مملوءاً باللحم ووضعاه عند المدخل. وصاح فارس في الليل يدعو للعشاء حتى عابري السبيل في الجوار.

تجمعنا حول هذا الجبل من اللحم. ورأيت في الضوء المتراقص الرجال الجائعين التواقين يقرفصون مقابلي بضفائرهم السوداء تحت كوفياتهم البيضاء والحمراء التي ارتدت أطرافها فوق أكتافهم، وبدؤوا الأكل بأصابعهم، فنزعوا اللحم عن العظام والتهموه بلُقَمٍ كبيرة. أخذ مضيفنا يرمي إلي بقطع اللحم الشهي عبر المنسف الذي كان مزيناً برأس الجمل المفتوح، ولكن بدون المخ. فالنساء فقط هن اللواتي يأكلن المخ لأن من المفترض أن يجعل الرجال ضعاف القلوب. كما أن قلوب الحباري والطيور الأخرى أيضاً لا يرغب فيها أسياد الصحراء الشجعان.

بقينا أربعة في هذا الانهدام نظراً لوجود الكفاية من الطعام والماء. تناثرت الجمال في المنطقة المجاورة، كما أن النساء انشغلن في اقتلاع جذور الشجيرات الصغيرة، وجمع الحطب الذي حملنه إلى المخيم بحزم كبيرة. الكثيرات من النسوة ذوات أجسام جميلة يمشين منتصبات وبخصور متمايلة حتى عندما يَنُؤْنَ تحت الأحمال الثقيلة. أطراف أثوابهن الزرقاء تنساب خلفهن على الرمال، ولكن

مقدمة الثوب تجمع وترفع بالقدر الكافي ــ والكافي فقط ــ أي حوالي عرض الكف ليتيح لهن حرية الحركة.

ووصلنا إلى الحوز جنوب جبل عنزة وهو منطقة منخفضة مملوءة ببرك المطر بعد أحد عشر يوماً من السير المتمهل.

وهناك افترقنا ـ فارس وأنا ـ عن بقية المسافرين واتجهنا غرباً إلى أطراف الحماد **والحرة** (الصحراء الصوانية)، قاصدين وادياً بجوار **أم دعال**. ودَهَمَنا الظلام في المناطق المنخفضة ولكن في المناطق المرتفعة من الحرّة بقي من ضوء النهار ما يساعدنا على الرؤية. وأوقفت مها لأن منظراً عبقرياً ظهر أمامي ــ مضارب الرولة في المساء.

بعد رؤية البرّية يوماً بعد يوم ولعدة أسابيع ـ لاشيء سوى السماء الزرقاء والقفر ظهرت لنا فجأة مدينة من الخيام. وتصاعد الدخان من آلاف الخيام السوداء وبينها بدت قطعان الجمال ـ المئات منها تتخذ سبيلها نحو المبيت.

وأخيراً عدنا إلى المنازل مخلّفين وراءنا /٧٥٠/ ميلاً من ركوب الجمال عبر صحراء الحماد والنفود البكر، وجلبت معي ذخيرة لا تقدر بثمن من الذكريات التي لا تنسى.

* * *